السيمائية: التـــاريخ والأســس العلميـــة

الأستاذ : **قريش بن على**
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سيدي بلعباس.

كشفت النتائج التي توصل إليها المنهج النقدي التقليدي ، في تعاملـــه مـــع الظاهرة الأدبية هشاشة القواعد التي أرتكز عليها لأنه تعامل مع النص الأدبي مـن خارج النص الأدبي نفسه. وعد (الأدب من أمر الغيب... وضربا مـــن ضـــروب "الوحي" و"الإلهام"، يتنازلان علـــى بعـــض الأشـــخاص "الموهوبيـــن" فطـــرة أو طبيعة"[1]. وعلى أنقاض هذه الرؤية النقدية الذاتية قامت المناهج النقدية الحديثـــة. واعترفت بأن (الأدب من أعسرها يقدم عليه الدارس من مواضيع. فالأثر الأدبـــي لا يتميز عن الآثار اللغوية التي ليست أدبية إلا بدقائق يصعب في معظم الحـــالات حصرها. ومن هنا كان افتراق المناهج الجديدة وتعددها وتصارعها في جدل اتسع وأحتد حتى أصبح من خصائص عصرنا هذا...)[2].

ولئن استمدت هذه المناهج أصولها العامة مـــن المكاســـب التـــي حققتـــها اللسانيات. (*Linguistique*) على يد فريدنان دي سوســـور (*F. De Saussure*) الذي (نجح في استنباط مبدأ لدراسة اللغة من اللغة نفسها) [3]. فقد حاول كل منـهج أن يرسم حدوده المنهجية ويعمق معارفه النظرية ويطرح نفسه بديلا منهجيا، مـــن خلال المفاهيم التي روج لها الذين نظروا لـــهذا المنـــهج أو ذاك أو انســـبوا لـــه بالممارسة التطبيق،

والسيميائية من أهم المناهج النقدية الحديثة التي تفردت في تحليلها للنـــص الأدبي ، وبدأت تعرف طريقها إلى المعاهد والجامعات العربية. فقد أصبح كثـــير من الباحثين والدارسين يؤثر هذا المنهج ويجتهد في رسم معالمه ونشر قواعده بين الطلاب وتأصيل مفاهيمه. ورغم أن الاختلاف مازال قائما فـــي (حـــد المفـــاهيم

الأساسية وقضايا جوهرية) [4] وبخاصة (منها نوعية العلاقة بين الخصائص الأسلوبية والبنية العميقة...)[5] إلا أن النتائج التي توصل إليها النقاد (السيميائيون، على مستوى التصور والتطبيق كشفت عن جملة من المصطلحات السيمائية التي تحيل القارئ إلى مضامين المنهج نفسه، بدءا بمصطلح (السيميائية). و(مفاتيح العلوم مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه) [6]. (و ليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاتة إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقائق الأقوال) [7]. ولاشك في أن مصطلح (السيميائية) (*Sémiotique*) يحيلنا إلى الحديث عن مصطلح (السيميولوجيا) (*Sémiologie*).

محاولة في التعريف (بالسيميائية) : تصدر مصطلحا(*Sémiotique*) (السيميولوجيا) (*Sémiologie*) قائمة المصطلحات النقدية الحديثة التي وقع بينهما بعض التدخل في المعنى جعل بعض النقاد يحدد تعريف، خاصة بكل مصطلح مما أحدث لبسا في أذهان بعض من الطلاب" ولكن بالرجوع إلى المعاجم التي أرخت لهذين المصطلحين نجد أن مصطلح(السيميائية) ومصطلح (السيميولوجيا) مترادفان على مستوى الدلالة المعجمية. فهما يدلان في الأصل (على علم في الطب موضوعه دراسة العلامات الدالة على المرض) [8]. وقد ظل هذا الترادف يستعل في (مستوى الاستعمال الاصطلاحي) عند *Oswald Ducrot* و *Tzvetan Todorov* فهما يعرفان المصطلحين السابقين بقولهما:(إن السيميائية أو السبيولوجيا هي علم العلامات) [9]. واستعمل ج. لوك (*J. Locke*) (1632-1704م) مصطلح (السيميائية) ولكن الدراسات السيميائية في عصره ظلت منحصرة في نطاق النظرية العامة للغة ثم أصبحت مع أعمال الباحث الأمريكي

الفيلسوف ش .ص . بيرس (*Charles Sanders Peirce*) (1839-1914) نظامـــا أو قواعد مستقلة[10].

ويفرق ر. بارت (*Roland Barthes*) بين السيميولوجيا والسيميائية فيقول: (إن السيميولوجيا علم عام يستمد أصوله النظرية مـــن الألســـنية والســـيميائية أو السيميائيات فرع لهذا العلم العام) [11].

ومهما كان الأمر فإن هذا التعريف لا يخرج السيميائية عـــن موضوعـــها الأساسي هو (دراسة الأدب ووسائل التعبير الخاصة بالنص) [12]. وهذا ما ذهـــب إليه كيمسليف (*Hjemlev*) وجوليا كريستافا وأما بريكـــل (*Herbert E. Brekle*) فيعطى في كتابه :(علم الدلالة) (*Sémantique*) المعنى نفسه لمصطلحين السابقين. إذ يرى أن السيميائية (نظرية عامة في العلامات) ويرى-أيضـــا- أنـــها (منـــهج نظري في المعرفة) [13]. ولعل هذا الاختلاف في التعاريف هو الذي جعل بعـــض الباحثين يفضل استعمال مصطلح (السيميائية الأدبية)، (*Sémiotique Littéraire*)، تمييزا لمها عن مصطلح (السيميولوجيا) (لوصف أنظمة خاصة مـــن العلامـــات وضمنها النظام العلامي الخاص بالنص) [14]. ولاشك في أن (النص يعتبر نظامـــا خاصا من العلامات الجمالية) [15]. وهذا الاختلاف في التعريف قد يعود -أيضـــا- إلى الفروق في ترجمة المصطلح من اللغة الفرنسية. فقد ترجم بعـــض البـــاحثين العرب مصطلح (*Sémiologie*) ب: (علم العلامات) ومصطلـــح ،(*Sémiotique*) (العلامية). واقترح آخرون ترجمة مصطلح (*Sémiologie*) بـــ: (العلامية) أو(علم العلامات) ومصطلح (*Sémiotique*) بـــ: (السيميائية) [16].

وانطلاقا من العلاقة الطبيعية بين السيميائية والألسنية وتحددها اللغة التـــي هي نظام علامي إبلاغي. فقد دعا ف دي سوسـير (*Ferdenand de Saussure*) (إلى تأسيس علم العلامات(*Sémiologie*) أو السيمبولوجيا لدراسة الأنظمة العلامية و(تكون الألسنية فرعا من هذه العلامية العامة) [17]. ويسعى أصحاب هذا الاتجـــاه

إلى تأصيل هذه الرؤية. والباحث كلود شاربول (*Claude Charbel*) واحد منهم. فهو يرى (أن السيميائية الأدبية واللغوية لا يمكن ألت تحل بعض مشاكلها إلا إذا تأسست سيميائية عامة تدرس الأنظمة إلا بلاغية العامة معتمدة علم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا (*Anthropologie*) وتكون الألسنية وألسنية الخطاب أي السيميائية الأدبية مظهرا من مظاهرها ومستوى محددا (من مستوياتها) [18]، وأما الاتجاه الآخر ويمثله ر.بارت (*R. Barthes*) فيرى أن (العلامية العامة) ينبغي أن تكون فرعا من الألسنية. ويمثل هذا الاتجاه –أيضا – (جوليا كريستافا) لكنها تدعو إلى (إرساء قواعد السيميائية الأدبية قبل تأسيس علامية عامة لأن النص الأدبي يعتبر أهم نظام يعتبر أهم نظام عالمي مادته اللغة) [19]. واللغة هي الركيزة الأساسية في دراسة خصائص النظام اللغوي وتحليل النص الأدبي.

I. السيميائية ومناهج تحليل النص الأدبي:

بدأت المرحلة الأولى من المراحل التاريخية التي مرت بها الألسنية (بالتركيز على دراسة البني اللغوية وابراز العلاقات التركيبية بين عناصر الجملة دون اهتمام بالبعد الدلالي الناتج عن تغير التركيب)[20]. وكان من نتائج هذا التركيز على البني اللغوية (تبلور مفهوم البنية فأصبحت البنيوية منهجا في البحث تجاوز اللسانيات إلى العلوم الإنسانية)[21]. وعد مقال ر . بارت (*R. Barthes*) الذي كتبه في مجلته (*Communication*):

(مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة) قواعد نقدية عامة، فالجملة –حسب ر. بارت– (هي موضوع الألسنية فلذلك فإن النص مهما كان حجمه ليس إلا جملة كبيرة) [22]. وقد انطلقت الدراسات الأسلوبية –أيضا– من (ألسنية الجملة). وغايتها إبراز (أدبية النص) في (مستوى البني اللغوية بالتمييز بين البني التي تظل في

مستوى إلا بلاغ أو قريبة منه. والتي تلعب دورا أسلوبيا فتحقق توجيه القارئ إلـــى مقاصد الكاتب)[23].

فالنتائج التي توصلت إليها الدراسات الأسلوبية -رغم عمقها- فلن (تـــؤول إلى نظرية نقدية شامة لكل أبعاد الظاهرة الأدبية فظلا عن أن تطمح إلـــى نقـــض النقد الأدبي أصوليا)[24]. وقد يعود ذلك إلى أن الدراسات الأسلوبية - كما يـــرى ريفتار (*Rifaterre*)، (تتعلق بالبنية الظاهرة في النص بينما الطريق الناجعة فـــي تفسير النص الأدبي أو الشعري يجب أن تكون (سيميائية) بدل أن تكون الســـنية) [25]. وأما البنيوية التكوينية (*Le Structuralisme génétique*) فتتجاوز التحليـــل الشكلي في المستوى البنيوي والأسلوب لأنها تهدف إلى الكشف عن (التماثل بيـــن البنية الشكلية والبنية الاجتماعية التي تولد عنها النص فهي تبرز بعدا جديدا يتمثـل في البنية الضمنية التي يشتمل عليها النص فضلا عن البنية الظاهرة وفـــي هـــذا المستوى تكمن قيمتها الأصولية) [26]. ويبدو من خلال هذه المعطيات أن السيميائية استثمرت هذه المعارف المنهجية والنظرية التي أشرنا إليها، باختصار، وأرســـت منهجا مستقلا وقائما بذاته.

II. السيميـــائيـــة والنـــص، الأدبـــي:

تخلص المنهج السيميائي في تحليله للنص الأدبـــي مـــن (ثنائيـــة الشـــكل والمضمون) لأنه (لا يوجد تركيب اعتباطي مستقل بذاته بل إن كل تصور وكـــل قاعدة (هي في نفس الوقت تركيبية ودلالية) [27] ولهذا انشغل السيميائيون بوظيفـــة (العلامة) في (تأمين الاتصال بين الأفكار عبر وسيلة الرسائل. مما يحتم بالتـــالي وجود أداة، شيء يتكلم عليه ومرجع، وعلامات ونظام إشارات، كما يتوجـــب أن يكون ثمة وسيلة نقل بين المرسل والمرسل إليه) [28]. وانطلاقا من هذه الوظيفـــة

المركزية التي تقوم بها العلامة في (تأمين الاتصال بين الأفكار) بني السيميائيون منهجهم في تحليل النص الأدبي وقسموا هذه البني إلى قسمين أساسيين :

1. بنيـــة ظاهـــرة.

2. وبنيـــة عميقـــة.

ولكنهم اختلفوا في تحديد العناصر التي تكون كل بنيـــة حســـب مشـــاربهم العلمية والأيديولوجية.

ويمكن ألت نقسم هذه الاتجاهات إلى اتجاهين رئيسين :

ويمثل الاتجاه الأول قريماس (*A. J. Greimas*). وتشمل البنية العميقة عند (قريماس) على القواعد التي يخضع لها (العالم السردي) (فيقع الاهتمـــام خاصـــة بالبناء الوظائفي وتحليل العلاقات بين الفاعلين أو القوى الفاعلية فـــي المســـتوى العمودي والأفقي...)[29]

وأما البنية الظاهرة (فإنها تتركب من الصياغة التعبيرية). إذ يحلل النـــاقد (خصائص الشكل الأدبي والخصائص الأسلوبية) كما يحلل (علاقة اللغة بالســـياق الخارجي).

وأما الاتجاه الثاني فيمثله (جوليا كريستافا) (*Julia Krestiva*). ويرمي هذا الاتجاه إلى (التعمق في المنهج الاجتماعي في النقد وتأصيل النظريات القولدمانيـــة (*Goldman Lucien*) كما يحاول هذا الاتجاه أن يستوعب معطيات لتحليل النفـــس وصهرها ضمن التحليل الاجتماعي).

و يرى هذا الاتجاه أن البنية العميقة تتكون من العوامل الخارجيـــة التـــي ساعدت في ظهور النص الأدبي، من ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية ونفسيه. وتتكون (البنية الظاهرة من البني اللغوية الخاضعة للقواعد التركيبية وإلا بلاغيـــة)[30]. لأن النص الأدبي في حقيقته بنية لغوية (ذات مستويات عديدة) ولعـــل هـــذا الأمر هو الذي جعل بعض الباحثين يدعو إلى تأسيس (سيميائية نصيـــة) (تطبـــق

مناهجها على كل النصوص مهما كـــان مســـتواها وجنســـها) [31]. وقـــد حققـــت السيميائية –رغم تشعب الاختلافات النظرية والمنهجية– كثيرا من المكاسب لعـــل أبرزها أنها اعتبرت النص الأدبي (نظام من الرموز في درجة ثانية يستهلّ نظـــام رموز أولي هو اللغة) [32].

ورغم هذه المكاسب فإن السيمائية ظلت جملة من النظريات. وعلى الدارس للنص الأدبي من خلال المنهج السيميائي ألا يتشبث بالقواعد المنهجية الصارمـــة على أنها علم أزلي بل ينبغي أن يجعله يلائم النص للسبب الذي ذكرناه –آنفا–.

هـــــوامـــش

[1] حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية. سراش للنشر تونس 1985، ص 42.

[2] المرجع نفسه، ص43.

[3] حسين الواد. البنية القصصية في رسالة الغفران الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، الطبعة الثانية، 1977، ص 12.

[4] مساهمة في التعريف بالسيميائية الحياة الثقافية العدد 36-37، تونس،1985 ص 193.

[5] أنظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[6] عبد السلام المسدى: قاموس اللسانيات. الدار العربية للكتاب،1984، ص11.

[7] انظر : المرجع نفسه والصفحة نفسه.

[8] O. Ducros et T. Todorav : Dictionnaire en cificlojedie des sciences du langages 1ere publication. Edition du Seuil. 1972. P 115.

[9] انظر : المرجع نفسه ص: 113.

[10] انظر : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[11] انظر مساهمة في التعريف بالسيميائية على العش الحياة الثقافية. ص193.

[12] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[13] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[14] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[15] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[16] أنظر المرجع نفسه ص: 194.

[17] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[18] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[19] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[20] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[21] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[22] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[23] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[24] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[25] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[26] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[27] انظر المرجع نفسه ص: 195.

[28] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[29] انظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[30] السيمائية بيار غيرو، ترجمة: أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات. بيروت. باريس، الطبعة الأولى ص: 9.

[31] مساهمة في تعريف السيميائية على العش الحياة الثقافية ص: 195.

[32] أنظر المرجع نفسه ص: 196.